الشّاهد البلاغي في دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني

Rhetorical Quotation in Al-Jurjani's Dalail al-I'jaz

الطالب: مصطفى سالمي*	الأستاذ الدكتور: سليمان بن علي
Salmimustapha17@gmail.com	جامعة عمار ثليجي كلية الآداب و اللغات
مخبر اللسانيات التقابلية وخصائص اللغات	الأغواط
جامعة عمار ثليجي كلية الآداب و اللغات	(الجزائر)
الأغواط (الجزائر)	

تاريخ الإرسال: 2020/10/03 تاريخ القبول: 17 /2020/11 تاريخ النشر: 2020/12/02

الملخص:

سار الجرجانيّ في كشف غموض الكلام على خطَّةٍ بالغةِ الإحكام من خلال إخراج الشّاهد البلاغيّ من طابع النَّمطيَّة والجمود الّذي سيطر على البلاغة العربيّة قبل عصره، إلى الطّابع الأدبيّ الّذي يُعْنى بشرح الشّاهد البلاغيّ وتحليله وتذوُّق أسرار جماله، وقد يلاحظ الدّارس لكتاب الدّلائل و لسابقه الأسرار أنَّ التَّميُّز في الكتابين لا يعود لكثرة الشّاهد البلاغيّة الّتي جَمَعَها، بل يعود أيضا إلى منهج التَّعامل مع هذه الشّاهد وشروط وأسباب اختيارها، وطريقة عرضها وتحليلها الّتي اعتمدت على بيان قيمة الشّاهد وتقديم أمثلة مرادفة له، وعقد موازنات مع أمثلة أخرى، حتّى يقع الشّاهد في نفس القارئ، ويأخذ بفكره، ويطرح عنه الغموض والالتباس، وقد جاء البحث مبينا لهذا التعامل الخاص مع الشاهد البلاغي كاشفا الآليات التي اعتمدها عبد القاهر للوصول إلى مبتغاه.

الكلمات المفتاحية : الشاهد،البلاغة،التحليل،الدلائل، الجرجاني.

Abstract:

Al-Jarjani uncovered the ambiguity of the speech on a very strict plan through extracting the rhetorical quotation monotony that dominated the Arabic rhetoric before his time. He explained the rhetorical quotation, analyzed and tasted the secrets of its beauty. Excellence in the two books is not due to the large number of rhetorical evidence collected, but also to the approach of dealing with quotations. This research paper sheds light on the mechanisms used by Al-jarjani to reach his goal.

Key words : Quotation, rhetoric, analysis, **D**alail, Al-Jarjani

*المؤلف المرسل

الاستشهـاد في دلائـل الإعجـاز:

الملاحظ في دلائل الإعجاز تنوّع الشّاهد والأمثلة، فالمتتبّع للكتَاب يلاحظ أثرًا للأُدباء والنُّقَّاد واللّغويّين والنّحاة والشّعراء. وتَأَثُّر الجرجانيّ باللّغويّين والنّحاةِ لم يكن فيه المدافِعَ عن النّحو أو الصّرف أو فقه اللّغة وإنّما كان جُلّ غايته أنْ يَنْتَفِع ببعض مناهجهم أو مواقفهم أو توجيهاتهم، وذلك ممّا يُعِين على تَجْلِيَّة موقفه وتوضيح غايته، ولذلك نلاحظ أنّ الجرجانيّ ينقلُ عن أبي بكرٍ السّراج وسيبويه وأبي عليٍّ الفارسي والأخفش وابن دريد والخليل وأبي الأسود الدُّؤلي والمبرّد وغيرهم، وكلُّ ذلك لخدمة غَرَضِه بالأُسُسِ الأصوليّة في اللّغة العربيّة، وَلِسِعَةِ ثقافته يُنوِّع في كتابه معتمدا على شواهد نثريَّة من أقوال الصَّحابة والتّابعين، واستعان بآراء النّقاد العرب كابن طَبَاطِبَا العلويّ والقاضي الجرجانيّ.

ولهذا يعرض لنا الجرجانيّ ثقافتَه النّقديَّة الأدبيّة من خلال هذه النُّقولات والنُّقُود الّتي اختارها مؤيّدا أو مصحِّحًا، وكلّ ما يُعِينُه على توضيح فكرته والانتصار لها، ولو كان الشّاهد مجهول النَّسَب، وذلك لأنّ النّصَّ الجيّد هو الّذي يُؤخَذُ به وإنْ كان صاحبه من غير المشهُورينَ، لأنَّ الجودة الفنيَّة هي المقياس في الإبداع الأدبي.

وإنْ كان تميُّز الجرجانيّ في ما أورده من آراء نقديَّة فإنَّ هذا عائد بالدّرجة الأولى إلى عقليَّتِه الفذَّة في اختيار منهج مضبوط في تعامله مع الشّاهد البلاغيّة الّتي أوردها وقد يكون مسبوقا في اختيار بعضها.

أنواع الشّاهد التي اختارها الجرجانيّ في الدّلائل:

استشهد الجرجانيّ في الدّلائل بالقرآن والحديث وأقوال الصّحابة والشّعر وأقوال الشّعراء والحِكَمِ والخُطب والآثار والأمثال وكان الشّعر هو الطّاغي في اختياراته، وقد عِيبَ على الجرجانيّ اعتنَاؤه بالشّاهد الشّعريّ على الشّاهد القرآني وكتابه معدود من كتب الدّراسات الإعجازيَّة وهذا راجع إلى أنَّ المقصود من الدّراسة هو الوقوف على أسرار التَّراكيب ودراسة الأساليب الّتي يُمكِن من خلالها دراسة أسرار القرآن، والجرجانيّ بهذا يبغي أنْ يسوق دليل الإعجاز لا الحديث عن الإعجاز وتفسير القرآن1.

يقولُ الباحث أحمد بدوي: "وربَّما يكون سرُّ ذلك يعود إلى أنَّه أراد أن يجعل كتابه الدّلائل خَالصًا لشرح المقياس الّذي يُقاس به إعجاز القرآن وهو بلاغته الّتي ترتفع إلى أسمى الدّرجات فبيَّن معنى البلاغة وترَكَ للقارئ النّاحيَّة التَّطبيقيَّة على القرآن2.

كما أنّ الشّعر يجوز فيه الموازنات بين الجيّد والرَّديءِ من القَوْلِ، ولا ينبغي ذلك في آيِ القرآن لذا احْتَفَى بالشّعر واستشهد به3. فجُملة ما أورده منَ الشّاهد القرآنيَّة "260" مئتان وستون آية، ومن الأشعار أربع مئة واثنان وسبعون "472" شاهدا شعريًّا توزَّعت على "160" مئةٍ وستّين شاعرا.

وقد خرج الجرجانيّ عن قواعد النّحاة في تقليد زمن ودقّة الاحتجاج والاعتماد على الجاهليّين والإسلاميّين وهذا يرجع إلى وَعْيِ الجرجانيّ أنّ تأسيس قواعد النّحو باستقراء اللّغة شيء، والاعتماد على النّحو في تلمُّس المعاني وتبيِّين منظومة الدّلالات شيء آخر4.

التَّـوثيــق والنِّسـبـة:

يُعدُّ توثيق الشّاهد مؤشِّرا على دقَّة الكاتب وإحاطته بما ينقل، وهو الأمر الواضح في تعامل الجرجانيّ مع شواهده، فَيَعْزُوا البيت لصاحبه وعادة ما يعزوه إلى من أَوْرَدَه5.

وقد أغفل ما يقارب" 125" مئة وخمسة وعشرين شَاهِدا من مجموع الشّاهد في الدّلائل.وفي مرَّات قليلَةٍ يسرُد مجموعة من الأبيات لا ينسب منها واحدا6. وأحيانا ينسب في أوَّل الكتاب ويهمل ذكره في المواضع اللَّاحقة7. وأحيانا يُهمل في الموضعين8.

شـهرة بعض الشّاهد دون أخـرى:

إنَّ شهرة كثيرٍ من الشّواهد الشّعريّة تعود إلى:

- شغف البلاغيّين والعلماء بالشّعر القديم.
- عناية الشّعراء بجماليّة الصُّورة والابتكار في التَّصوير والتّركيب.
- والبعض من الشّعراء تخدمهم فترة الاستشهاد الّتي ظهر فيها.

ومن الشّعراء – الّذين استشهد بهم الجرجانيّ من مختلف العصور– :

الجاهليِّين: امرؤ القيس، النّابغة، زهير، الأعشى*.

الأمويِّين: جرير والفرزدق و العذريّون.

العبَّاسيِّين: أبو تمّام والمتنبّي والبحتري وأبو نوَّاس ....

فهؤلاء الشّعراء المبدعون في عصورهم شغلوا النّقاد واللّغويِّين فتناولوا شعرهم شرحا ونقدا، وبيَّنوا الكثير من الجوانب الجماليّة فيه، وهذا الكمّ الهائل من الشّاهد دليل على وفرة الدّلائل بالمادّة التّطبيقيّة، وممّا لا شكّ فيه أنّ كثرة الشّاهد والدّقة في الاختيار أسهمت في رفع قيمة ومكانة الكِتاب وأظهرت الوجه الأدبيّ الجماليّ الّذي ظهر فيه وتميّز به، ولكنْ لم تكن الكثرة والتَّنوّع هُمَا سبيلَ هذه القيمة، بل ما يُميِّز هذه الشّاهد في الدّلائل بحقّ هو ما سنعرفه من تفرّد في التّحليل والدّراسة.

أَهميّـة الشّـاهد الشّـعريّ:

إنّ دراسة الجرجانيّ اهتمّت بالبحث على جوانب المعاني أيْ في هيئتها الّتي بُنيت عليها، وهل جاءت هذه المعاني مستقلة كلّ معنى فيها أصل لنفسه؟ أم أنَّ بعضها تَولّد عن بعض وبُنيَ على بعض فتشكّل وتَكوّن من خلال هذا التّرابط والتّداخل؟ ثمّ إنّ هذا التّشابك له صُوَرٌ شتَّى – وإنْ كان الجرجانيّ بيَّن منها بعضها – وهذا باب متَّسع في الشّعر والنّثر، وله في كل موضع لوْنٌ ومذهب.

ولـمَّا كانت الفنون البلاغيّة قد جاءتنا من ديوان الشّعر، فيجب أن نَّعود بها إليه، لأنّ الّذي استخرجها إنّما استخرجها من تحت ألسنةِ الأدباء والشّعراء.

وقد سار الجرجانيّ في كشف غموض الكلام على خطَّةٍ بالغةِ الإحكام، فاسْتصفَى من كلام العلماء الكلمات الّتي تواردوها واعتبروها أصلا في حديثهم عن البلاغة فوجدها ثمانية*.

وأيقن أنّ تفسير الألفاظَ الثّمانية واستخراج مرادهم منها هو الّذي يَهديهِم إلى معرفة عِلمهم بالبلاغة، وقد رجع بهذه الكلمات إلى أصولها في غير باب البلاغة والفصاحة والبراعة، وراجع معانيها الحقيقيّة الّتي وضعت لها وما يقاربها من المجاز في استعمالها واختار من بين الكلمات النّظم لأنّها أجمع المعاني وهذه الكلمة فتحت له باب العلم.

ومن الغريب أنّ هذه الكلمات الثّمانية ليست ممّا استخرجه العلماء وإنّما هي أوصاف جاء بها الشّعراء في وصف شعرهم وبلاغته، وهذا ما جعله يشرح مراد الشّعراء من وصف البلاغة ويكون الشّعراء هم الّذين فتحوا الباب للعلماء لفهم معنى البلاغة والفصاحة والبراعة، وإن كان أحد الشّعراء يصف بلاغة شعره وبراعة صنعته فإنّ النّاقد يكتب في الموضوع نفسه لأنّ علم البلاغة هو علم صنعة الشّعر وعلم صنعة الكلام"9. والملاحظ في كتاب الدّلائل يجدُ كبيرَ اهتمامِ الجرجانيّ بالشّعر فقد أفرده بمدخل فقط لأهميّة الشّعر عنده"وكان الجرجانيّ يريد من هذا المدخل الّذي أخذ صفحات عدّة أَنْ يُعلِم القارئ منذ البداية أنّه سيعوّل على الشّعر تعويلا كبيرا في كتابه،لأنّ الشّعر مَجْلَى البلاغة،ومعرض الفصاحة ومجتمع فِرق الآداب"10. يقول الجرجانيّ: "لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلّا أنَّ الوصف الّذي له كان معجزا قائمٌ فيه أبدا، وأنَّ الطّريق إلى العلم به موجود والوصول إليه ممكن"11.

إنّ الأمر بقراءة القرآن وحفظه والمحافظة عليه لا تكون دون معرفة علمه مفصلا بالدّرس والشّرح، وإلّا فلن يُفهم القرآن، ولا بدّ بعدها من هجره وضياعه. فكان ممَّا يتمُّ الواجب إلَّا به فهو واجب.

والواجب إذًا معرفة وتعلُّم علم الإعجاز، فلا يمكن أن تكون المعجزة فينا وليس لها طريق يوصلنا إليها، فقد كُلِّفنا بمعرفة ذلك، ولهذا فإنَّ الجرجانيّ يؤكِّد أنَّه من المُحال أنْ يُعرف الإعجاز بمعزَل عن الشّعر الجاهليّ لأنّه ذروة البيان العربيّ، وزمنه زمن وقوع الإعجاز، فلا تدرك هذه الحجّة الباهرة في القرآن إلّا بمعرفة علم الشّعر، ومعرفة بأيِّ شيء يفضل بعضه بعضا12.

يقول الجرجانيّ إنَّ من يصدّ عن الشّعر صادٌّ عن أنْ تُعرف حجّة الله تعالى، وكان مثله مثل من يتصدَّى للنّاس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله، ويقوموا به ويَتْلوه ويُقرِئُوهُ13.

قال: "فخبِّرونا عنهم (أهل البيان من العرب الأوائل المخاطبين بالتّحدّي) عن ماذا عجزوا؟ أعن معاني من دقَّة معانيه وحسنها وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟

فإن قلتم عن الألفاظ فماذا أعجزهم من اللّفظ؟ أم مَّا بهرهم منه ... ؟"14.

ألم يكن هؤلاء أهل البيان؟ فأين وقع الإعجاز، قال الجرجانيّ مجيبا عن هذا التَّساؤل: "فقلنا أعجزتهم مزايا ظهرت في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيِهِ ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلّ مثل، ومساق كلّ خبر، وصورة كلّ عظة، وتنبيه وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، مع كل حجّة وبرهان وصفة وتِبْيان، وبهرهم أنّهم تأمَّلُوه سورَة سورَة، وعُشْرًا عُشْرًا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبوا بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أنّ غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى و أخلق، بل وجدوا اتِسَاقا بهر العقول وأعجز

الجمهور، ونظاما و الْتِئَاما وإتقانا وإحكاما"15، هذا كلُّ الّذي ذكَرَه لم يوجد في شعر القوم، وإلّا لاسْتَطاعوا إليه سبيلا وإنْ كان بيانهم بلغ الذُّروة. وهذا الّذي دفع الجرجانيّ دفعا إلى معرفة بل وجوب معرفة الشّعر لفهم القرآن وإعجازه، ولا شكّ أنّ الجرجانيّ نَفَذَ في صنعة الشّعر إلى باب من أدقِّ أبواب هذه الصّنعة، وهو قدرة الشّاعر على أنْ يعمل في المعاني ويبدع فيها بزيادات تَحْدث في أصولها، وإضافات تتشكَّل في المعاني، وتَبْرُز بخصائصها وصورها و هيئآتها، وهذا عند من يرى أنَّ الشّعر جوهر الآداب، فالمعنى في الشّعر هو هذه النّفثات الّتي ينفثها الشّاعر من اللّغة فيحوِّلها من لغة عامَّة إلى شعر خاص، والكشف عن هذا هو جوهر البلاغة16.

لقد قام الجرجانيّ بتحليل عناصر الشّعر وكان يهتمُّ بالتّفصيل والتّحديد ووضع اليد على الخصائص الّتي تعرض من نّظم الكلام، وتِعدادها واحدة واحدة، وتسميتِها، وهذا هو استكشاف القدرة الداخليّة الكامنة في الأحوال اللّغويّة، شرط أنْ يكون عملك عمل من له بصيرة في فهم الكلام يقول الباقلاّنيّ: "لا يكون النّاقد ناقدا حتّى يعلم طرائق الشّعراء ومذاهبهم علما لا يخفى عليه سبك أبي نوّاس من سبك مسلم، ولا نسيج ابن الرّوميّ من نسج البحتريّ..."17. أمّا الجرجانيّ فهو ذاك النّاقد الّذي يأخذه البيت الشّاهد كلّ المأخذ فيطير به في رحاب اللّغة، مكتشفا أسرارا وبدائع لا يراها إلاّ من أطال التّأمّل، وَعَلَتْ همَّتُه وارتقى ذوقه وكثُرت مراجعه لكلام العرب، الّذي كان ولا زال منجما تُستخرج منه أغلى الكنوز وأجمل المعادن.

وكثيرا ما تجد الجرجانيّ وقد حمله الشّاهد وقوّته وذوقه ونَسْجه ونَظْمه وأَصَالته من موضوع إلى آخر ومن باب إلى آخر، ولكنّه لا يهدم منهجه ولا يخرج عن موضوعه، ولا شكّ أنّ هذه الإمكانات في التّحليل عند الجرجانيّ لا يسمح بها إلّا الشّعر، ولذلك تراه يستشهد بأشعار في المقام الواحد، ويعود بين الفينة والأخرى لشاهد سبق له أن قرَّر فيه نكتة أو لطيفة أو أوضح من خلاله قاعدة بلاغيّة. إنّها طبيعة في الشّعر وقيمة جماليّة تظهر القيم الجماليّة في تنوّعه واختلاف مستوياته.

الاعتماد على شعر المولدين والمعاصرين له:

روى الجرجانيّ في رسالته "الرّسالة الشّافيّة" من خبر أبي الأسود الدُّؤلي، في مجلس أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، حين اختصم النّاس في أي النّاس أشعر، فسأل أبو الأسود وكان ذا قيمة عنده فقال أبو الأسود:" أشعرهم الّذي يقول:

وَلَقَدْ أَغْتَدِي يُدافعُ رُكنِي !!! أَحْوَذِيٌّ ذُو مَيْعةٍ إِضريجُ
مخْلطٌ مِزْيل مِكَرّ مِفَرّ !!! مِنْفَحٌ مِطْرَحُ سَبُوحٌ خَرُوجٌ
سَلْهَبٌ شَرْجَبٌ كَأَنَّ رِماحًا !!! حَمَلَتْهُ وفي السَّرَاةِ دُمُوجٌ18

فأقبل أمير المؤمنين على النّاس وقال: كلّ شعرائكم محسن، ولو جمعهم زمن واحد، وغاية واحدة، ومذهب واحد في القول لعلمنا أيُّهم أسبق لذلك "19.

وما ذكره عليُّ بن أبي طالب –رضي الله عنه– مذهب في نقد الشّعر عند أهل البلاغة والفصاحة، فالسّياق ركن أَسَاسٌ في فهم قول الشّعراء، والنّقاد وأهل البلاغة لا يعتمدون في اختيار شواهدهم على شروط زمانيّة ولا مكانيّة كما سبق الإشارة إليه، ولكنَّ مطلبَهم غير مطلبِ النّحاة وأهل اللّغة، ولا يبحثون على إقرار لفظ بعربيَّتِه ولا لتأكيد قاعدة نحويّة حتّى يشترطوا زمنا ورقعة مخافة اختلاف الألسن على العرب وكثرة اللَّحن إنّما الّذي يسعى إليه أهل البلاغة هو الأساليب وفنون الكلام.

وقد اعتمد الجرجانيّ على ما يقارب مئة وستُّين شاعرا من مختلف العصور فكما استشهد بالجاهليّين استشهد بمعاصريه أو المولّدين. وقد وجد الجرجانيّ عندهم تفنُّنًا في بناء الكلام، وبراعة في صياغة المعاني وتشخيصا وتلوينا في الأساليب، وتنوُّعا في طرائق العرض. وكثر استشهاده بشعرهم لسهولة الحصول عندهم على ما يبتغيه.

يقول صاحب خزانة الأدب :"العلوم ثلاثة: الأوَّل علم اللّغة والتّصريف وعلم العربيّة، لا يستشهد عليها إلّا بكلام العرب نظما ونثرا، لأنَّ المعتبر فيها ضبط ألفاظهم، والعلوم الثّلاثة الأخيرة علم المعاني والبيان والبديع يستشهد عليها بكلام العرب وغيرهم لأنَّها راجعة إلى المعاني، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم إذا كان الرّجوع إلى العقل"20.

ولو نظرنا في الدّلائل لوجدنا ما يقارب أربع مئة واثنين وسبعين شاهدا شعريا توزّعت على مئة وستين شاعرا، ولوجدنا من هؤلاء:

- المتنبّيّ، وقد استشهد له بما يقارب سبعة وخمسون شاهدا شعريّا.
- البحتريّ، وقد استشهد له بما يقارب ثمانية وأربعين شاهدا شعريّا.
- أبا تمّام، وقد استشهد له بما يقارب خمسة وأربعين شاهدا شعريّا.
- ابن المعتز، وقد استشهد له بما يقارب سبعة شواهد شعريّة.
- الفرزدق، وقد استشهد بما يقارب الاثنَيْ عشرَ شاهدا شعريّا.

يقول الجرجانيّ في تعليل اختياره لشواهد البحتريّ: "وإنَّك لا تكاد تجد شاعرا يعطيك في المعاني الدّقيقة من التّسهيل والتّقريب وردِّ البعيد الغريب إلى المألوف القريب ما يعطي البحتريَّ ويبلغ في هذا الباب مبلغه"21.

تقول الباحثة نجاح الظّهار: "وفي الدّلائل كان يستشهد بمعظم أبياته في مواقع الاستحسان فلم أقف له إلا على موضع واحد غير باب الموازنة عاب فيه البحتريّ"22.

ويقول عبد العزيز الميمنيّ في الطّرائف الأدبيّة:" إنّ سِرَّ اعتماد الجرجانيّ على شعر أبي تمَّام أنَّه تأثَّر بشيخه القاضي الجرجانيّ الّذي قَرَأَ عليه شعر أبي تمَّام"23.

وكلّ هذا الإعجاب بهم إنّما هو عائدٌ إلى ما في شعرهم من طرافة وجدَّة تُساعده على إظهار ما يريد من جماليّات الكلام.

ومسألة أخرى مهمّة وهو ما يؤكّد مذهب أهل البلاغة في الاستشهاد، أنّهم اعتمدوا على شواهد شعرية ولم يكتفوا بذلك بل زادوا في نقل كلام أهل النّقد والعلماء، فقد ذكر شواهد من أدب الجاحظ كما ذكر شواهد من كلام

سيبويه،فكان كلام الشيخين عنده من أصل البيان الّذي يُعتَدُّ به،لأنَّ اللّغة جرت في كلامهما على سَليقَتِها كما جرت في كلام أهل الطّبع الّذين تَستَمِدُّ من كلامهم أُصول بلاغَتِها.

وباستشهاده بكلام سيبويه يُدْخِلُ الجرجانيّ الكتب العلميَّة المتميِّزة دائرةَ البيان والبلاغة، وبذلك يصير تحليل الصّيغ وإدراك الفروق ليس مقصورا على الشّعر والنّثر الأدبيّ، بل تدخل فيه كلّ عبارة فيها إتقان وتدقيق مهما كان المعنى المُعبَّرُ عنه لأنَّ الله سبحانه وتعالى لم يجعل عذوبة البيان وملاحته وسلطانه على القلوب وقفا على طائفة الشّعراء أَوْ كتَّاب الأدب، وإنّما تجد نفحة الفصاحة والبلاغة في أقاليم كثيرة ليست محترفة في هذا الباب"24. ولم يكن سيبويه فقط بل كان الأخفش، وابن السّراج وأبا عليٍّ الفارسيَّ والحسنَ البصريّ وحتّى المجهولين25.

منهج الجرجانيّ في توظيف واستعمال الشّاهد البلاغيّ:

لمَّا بدأ الجرجانيّ الفصل الّذي عنونه بـ"تحقيق القول في البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة " كان قد بدأ في مواجهة القضيّة الأم، والّتي عقد عليها كتاب الدّلائل والّتي يرجع إليها أيضا كتابه أسرار البلاغة، لأنّه ليس في الكتابين بحث إلّا وهو يكشف جانبا من جوانب الأصول الّتي: "تُعبِّر عن فضل بعض القائلين عن بعض من حيث نطقُوا وتكلَّموا، وأخبروا السَّامعين عن الأغراض والمقاصد، ورَامُوا أَنْ يُعْلِمُوهم مَّا في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم"26.

وهذا النّص الجليل يلخِّص لك علم البلاغة وعلم نقد الأدب في التّراث اللّغوي، والجرجانيّ يتكلّم هنا عن البلاغة الّتي هي اتّساع المعاني وغزارتها في النّفوس الحيّة الّتي تتكوّن فيها الأفكار وتتزاحم فيها الخواطر. وهذا هو جذر البلاغة الأوّل "لأنّ غزارة هذا اليَنبوع هو الّذي يجعل الألفاظَ ذات دلالاتٍ تتغَازر وتتَّسع، وكأَنَّ الأوعيَة اللّغويّة تَتَشرَّب من مبسوط المعنى المتدافع في قرارة النّفس أقصى ما تطيق حمله بمهارة وحذق اللّسان الّذي يُدير اللّغة على وجهها الأفضل، حتّى تجد الكلام وله ظاهر جَلِيٌّ وباطن خَفِيٌّ"27.

وهذا المنهج هو الّذي ينبغي أنْ يَسود في مؤلَّفات البلاغة، لأنَّ إيراد الشّاهد من إبداعات العصر من أجل استبصار جوانب الجمال هو غرضها والهدف منها، بل هي الوسيلة الّتي تبيّن بها هذا وذاك.

لقد حاول الجرجانيّ من خلال الدّلائل إخراج الشّاهد البلاغيّ من طابع النَّمطيَّة والجمود الّذي سيطر على البلاغة العربيّة قبل عصره، إلى الطّابع الأدبيّ الّذي يُعْنى بشرح الشّاهد البلاغيّ وتحليله وتذوُّق أسرار جماله، وقد يلاحظ الدّارس لكتاب الدّلائل و لسابقه الأسرار أنَّ التَّميُّز في الكتابين لا يعود لكثرة الشّاهد البلاغيّة الّتي جَمَعَها، بل يعود أيضا إلى منهج التَّعامل مع هذه الشّاهد وشروط وأسباب اختيارها، وطريقة عرضها وتحليلها الّتي اعتمدت على بيان قيمة الشّاهد وتقديم أمثلة مرادفة له، وعقد موازنات مع أمثلة أخرى، حتّى يقع الشّاهد في نفس القارئ، ويأخذ بفكره، ويطرح عنه الغموض والالتباس، وللجرجاني في توظيفه الشّاهد البلاغيّة غرضان هما:

- **إيضاح الفكرة النّظريّة الّتي يدعو لها ويسعى لتثبيتها وتأييدَها.**
- **حمل الفكرة والنُّهوض بها.**

و هما فرعان متكاملان، فالنُّهوض بالفكرة يستلزم إيضاحها وتأييدها ودعمها...

إيـضـاح الفكـرة النّظريّـة وتثبيتـهـا:

وقد كان الجرجانيّ يَرجع بفساد الرَّأيِ في معرفة البلاغة إلى الجهل "بأنَّ من شأن المعاني أنْ تختلف عليها الصُّور وتحدث فيها خواصُّ ومزايا بعد أنْ لا تكون. وأنَّك ترى الشّاعر وَقَدْ عَمَد إلى معنى مُبتذَل فصنع فيه ما يصنع فيه الصَّانع الحاذق إذا هو أغرب".28

وقد وقف الجرجانيّ وقفة تدقيق ومراجعة لِيُزيل ما يتبادر إلى أفهام النّاس من مثل قولهم: "الألفاظ كُسْوَة المعاني" أو "أَخَذَ المعنَى عارِيًا فكساه بلفظ من عنده"، ونَفَى نفيًا قاطعًا أنْ يقوم المعنى في النّفس غير مُتَلَبِّسٍ باللّفظ الدّال عليه، وأنَّه لا يُتَصَوَّر وجود معانٍ عاريةٍ من الألفاظ، ولا يُتَصَوَّر أنْ يكون عند المتكلّم ألفاظ وإنّما الّذي عنده هو صنعته في المعنى وتدقيق في البناء. فيقول: "من أين يُتصوَّر أن يكون ههنا معنى عارٍ من لفظ يدل عليه، ثمَّ من أين يعقل أنْ يجيء الواحد منَّا لمعنى من المعاني بلفظ من عنده إنْ كان المراد باللّفظ النُّطق باللّسان"...."اللّفظ في قولهم فكساه لفظا من عنده، عبارة عن صورة يُحدِثها الشّاعر أو غير الشّاعر لِلْمَعنى"29. ويقول: "إنَّهم جعلوا كالمُواضعة بينهم أنْ يقولوا اللّفظ وهم يريدون الصُّورة الّتي تَحْدُث في المعنى، والخاصّة الّتي حَدَثَت فيه"30.

يقول الجرجانيّ أيضا مدافعا عن الفكرة: "إنَّ هذا النّظم الّذي يتواصفه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله، صَنْعَة يُستَعان عليها بالفكرة لا محالة. وإذا كان مما يُستعان عليها بالفكرة ويُستخرج بالرّويَّة فينبغي أنْ يُنظر في الفِكر بماذا تلبَّس؟ أبالمعاني أم بالألفاظ؟ فأيُّ شيءٍ وَجَدتَهُ الّذي تلبَّس به فكرك من بين المعاني والألفاظ، فهو الّذي تَحدُث فيه صنعتُك، وتَقَع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك. فمحال أنْ تَتَفكَّر في شيء وأنت لا تصنع فيه شيئا وإنّما تصنع في غيره، لو جَازَ ذلك لَجَازَ أن يفكِّر البنَّاء في الغزل ليجعل فكره فيه وُصْلَةً إلى أنْ يصنع من الآجر وهو من الإحالة المفرطة"31.

وهذا من النّصوص العجيبة والتّحليلات الرَّاقيَّة والبَسْطِ المتمكّن، والتّمثيل المنطقيّ، وهو بهذا النّصّ يُحَكِّم القارئ الّذي يريد معرفة معنى النّظم وفهمه فهما سَديدا.

وبعد إيضاح هذه الفكرة النّظريّة وتقديم هذا التّقرير وغيره للفكرة المرادة، يُتْبِعُ ذلك بشواهد يحلِّلُها ويدقِّق النّظر فيها، حتّى إذا ما اطمَأَنَّ على حسن الإيضاح أَتْبَع ذلك بشواهدَ أخرى للفكرة الّتي قدَّمها من غير تحليل أوْ تفسير لها، والدَّافع إلى ذلك ترك مجال للقارئ ليُبْدِي ويُعِيد ويقرِّر بنفسه على ما في الفكرة من فوائد وحقائق ومجال لإبداع المتلقّي في فهم الشّاهد وإعمال الذّهن فيها، فهي أمثلة متخيَّرَةٌ انتقاها الجرجانيّ بطبعه وذوقه ولهذا كانت الشّاهد عند الجرجانيّ في هذه النُّقطة نوعين:

- شواهد أساسيّة يتناولها بالشّرح والتّحليل.
- شواهد رديفة يترك أمرها للقارئ يتمرَّن بها ويعالجها بنفسه.

حمـلُ الفكـرة والنُّهـوض بهـا:

وهنا لا يقرِّر الجرجانيّ الفكرةَ الّتي يريدها، ولا يصوغها صياغة محدَّدةً، بل يترك الشّاهد الشّعريَّ يرسمها في ذهن القارئ، فهو يذكر مثلا في: " فصل النّظم يتَّحد في الوضع ويدقُّ فيه الصّنع" مجموعة من الشّواهد دون شرحها، وإنْ كان مراده النُّهوض بالفكرة. يقول: ".... فمن ذلك أنْ تُزاوج بين معنيَيْن في الشَّرط والجزاء معا كقول البحتريّ:

إِذَامَا نَهَى الناهِي فلجَّ بيَ الهَوَى !!! أَصَاخَتْ إِلَى الوَاشِي فَلَجَّ بِهَا الهَجْرُ

وقوله:

إِذَا اِحْتَرَبَتْ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِماؤُهَا !!! تَذَكَّرَتِ القُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا

فهذا نوع"32. وهكذا فهو لا يفسّر ولا يشرح المراد بل ترك الشّاهد يرسمُها ويحدِّدُها.

وقد ذكر في أحيانٍ أخرى شواهدَ فقط للإفصاح عن الفكرة وتعيِّنِها وتحديدها، لا لتأيّدها كقوله: "... ولَكِن على وجه ثالثٍ، وهو الّذي عليه قولُ الخنساء:

إِذَا قَبُحَ البُكاءُ عَلَى قَتِيلٍ !!! رَأَيْتُ بُكاءَكَ الحَسَنَ الجَمِيلَا33

وقوله في موضع آخر: وعلى ذلك قول الآخر:

أُسُودٌ إِذَا ما أَبْدَتِ الحَرْبُ نَابَها !!! وَفِي سَائِرِ الدَّهْرِ الغُيُوثُ المواطِر34

اختيـــار الشّاهد البلاغيّة :

يقول الجرجانيّ: "وإذا كان هذا الوصف _الإبانة_ مُقوِّم ذاته وأخص صفاته (يقصد الكلام) كان أشرف أنواعه ما كان فيه أجلى وأظهر، وبه أولى وأجدر"35.

يَستخلِص الجرجانيّ من هذا النّصِّ أصلَ مقياس الكلام وميزانه الّذي يوزن به، ويجعل المقصود من الكلام هو أصلُ هذا المقياس، فإذا كانت رسالة البيان هي الإبانة عن المعاني فلا بدَّ من التَّمسُّك بالإبانة وجعلها أصل القياس، يقول أبو موسى: "ولم أَجِد أحدًا ممَّن كتبوا في الشّعر والأدب، يدفع هذه الحقيقةَ القريبةَ وهيَ أنَّ الإبانة جوهر الأدب والشّعر ... وكلُّ دراسة الجرجانيّ في كتابيهِ ليست إلَّا تحليلا للإبانة". ولا تَكون للإبانة مزيَّة إلَّا إذا أَبانت عن الغموض والخفاء في المعاني، وبهذا يكون سخاء المعاني وغزارته وجدَّته وطرافته من جوهر البيان، فلا يمكن أن تدخل الإبانة على المعاني السَّطحية الّتي يتناولها النّاس فقد قال أبوعبيدة:"ذهب الّذين يُحسنون فهم الشّعر" والمقصود الأسرار وغوامض المعاني وقد ذكر الجرجانيّ في باب التّمثيل أنَّ عقدة النّصّ الّتي يدور حولها عمل البلاغيِّ هي الإبانة، وذلك حين ذكر التّمثيل المَحُوج إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر والهمّة، أو تحمّل المشقة.و مثال ذلك قول بشار بن برد:

رَبَــابَـةُ رَبَّـة البَيْـتِ !!! تَـصُبُّ الـخَلَّ فِـي الزَّيْـت

وقَارِنْهُ بِبَيْتِ الآخر:

وَلله أَنْــهارٌ مِن النّاس شَقَّـهَا !!! لِيَشْرَع مِنْها كُلٌّ، مُقْوٍ وَواجِـدٍ36

تَظهر لكَ مدى المسافة الجماليّة بين البيتين، فلا يصلح الأوّل أنْ يكون شاهدا إلّا على المعاني المبتذلة، ولا يكون الثّاني إلّا في أفواه العلماء والنّقاد منقولا لِلُطْفٍ في بنائه، وقوّة في معانيه، فهذا هو الشّاهد، لأنَّ خير الكلام من اجتهد مُنشئُه في ترتيب مبانيه وتدقيق معانيه، حتّى يَهديَ القارئَ إلى ما أودعه فيه من دقائق الخواطر ولطائف المعاني. ولهذا كان اختيار الجرجانيّ للشّواهد ما علا فيها ممَّا صحّ فيه قولهم: "إنَّ خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك". من أجل هذا كان يجتهد في استكشاف العنصر الّذي يكون فيه النَّشاط العقلي ولا يمكن أنْ يكون في ألفاظ اللّغة لأنَّها شيء مُشترَك بين النّاس، بل قد تجد الشّاعرين قد استعملا نفس الألفاظ وبينهما مراتب ومراتب وقد نَنْسب هذه القصيدة للشّاعر فنقول لاميَّة الشَّنفرى، ولوْ أبطَلنا نَظمها وجمعنا ألفاظها في صعيد آخر ما جاز لنا القول بأنَّها ألفاظ الشّنفرى، فالأمر إذن عائدٌ إلى بيان صاحب القولِ وتلكَ الرّوابط والعلاقات بين الألفاظ الّتي أَحْكَمَت هذا التّرتيب، وكلُّ هذه الأمور صنعها الشّاعر فَنُسِب القَصِيد إليه.

إذن الكلمة تضيق وتتَّسع تَبَعًا لضيق علمِ من يتعامل معها وسعته، فإذا اتَّسع علمه أخرج منها العجائب. يقول الجرجانيّ: "فإنَّك تجد من شئتَ الرَّجلين استعملا كَلِمًا بِأعْيانِها ثمَّ تَرَى هذا قد فرع السَّمَاك، وترى ذلك قد لَصقَ بالحَضيضِ"37.

فليس كلُّ كلام يجرى في الشّعر والأدب تتجدّد علاقاته ومعانيه، وإنّما يكون ذلك في القليل دون الكثير. وفي هذا قال الجرجانيّ: "أَنْ يؤتى المعنى من الجهة الّتي هي أصحّ لتأديتِه، وتختار له اللّفظ الّذي هو أخصَّ له"، فلو لاحظت أنَّ الشّعراء يذكرون الطّلل بِصُوَرٍ شتَّى، والشّاعر الواحد تتعدَّد مداخله، وكلُّ شاعر يأتيه من جهة يختارها و يهيِّئ لها سياقها حتّى تكون هذه الجهة هي المتعيِّنة في سياقه.

هذه بعض الوسائل الّتي اعتمدها الجرجانيّ في تحسين الكلام، وَوَضَعَهَا ميزانا يُوزَن الكلام به، فقد اتَّخذ مَنْهَجًا جَبَّارًا وعملا دؤوبا ومشقَّةً لا يُقتَدر عليها في زماننا، حين اختار مجموعة من الأشعار تقارب الدِّيوان في بعض الفصول، وإنّك لتراه يختارها ويُصنِّفها بدقَّة متناهيَّة، شارحا ومُحلِّلًا، وأحيانا تاركًا القارئَ يعاتب نفسه على عدم فهمه فيُلقي لك المفتاح ويَقدح عقلك، ويثير فهمك ليُوصلَك لمراد البيت ومعناه.

كما أنَّ الجرجانيّ لم يَبْتَكر هذه الشّاهد كلَّها، بل تابع مَنْ قبله في بعضها، ولكنَّ الّذي يتميَّز به هو اختياره،كما يقول ابن عبد ربّه الأندلسيّ:"اختيار الرَّجل وَافِدُ عقلِه"38.يقول عبد الكريم الأسعد :"فالجرجانيّ امتاز بإيثاره استعمال الشّواهد المختارة بصورة عفويَّة طبيعيَّة لا قَسْرَة ولا تكلُّف فيها، وباستنباطه ما يشاء من القواعد البلاغيّة منها في يسر وبساطة"39. وهو ما صرَّح به الجرجانيّ في تنقيب وتفتيش الدَّواوين وتدارسها40، ويقول فيه شوقي ضيف: "كان محيطًا بنماذج الشّعر العربيّ وفرائده"41

ولعلَّ تنوُّع الشّواهد وقائليها وعصورها الّتي قيلت فيها دليل على أنَّ المقياس الّذي يتعامل به ومعه الجرجانيّ هو: الجمال الفنِّي. فقد قال الجرجانيّ: "إنَّ الخُطَبَ من شأنها أنْ يعتَمد فيها على الأوزان والأسجاع ... وأنَّ هذه الأبنيَّة النَّغَميَّة تُسهِّل سبيل البيان إلى قلوب متذوِّقِيه، وممَّا يناجي فيها العقلُ النّفسَ" ويقول: "ورأيتُ ناسًا يُبهرجون أشعار المولّدين و يَسْتَسْقِطون مَنْ رَوَاها ... ولو كان له بَصَرٌ لعرَفَ موقع الجيّد ممَّن كان وفي أيِّ زمان كان"42.

ولهذا كان اختيار الشّاهد الّذي يدفع الجرجانيّ دفعا إلى الفكر والعقل وإعمالهما، ليتوغَّل في أسرار النّفس الّتي أصدَرَت مثل هذا البناء والتَّرتيب والنَّسيج.

طريقـة تحليـله الشّاهد البلاغيّـة :

يقول محمود شاكر: "والّذي فعله الجرجانيّ في كتابه دلائل الإعجاز، هو أوَّل تحليل لِلُّغَة منْ حيث هي تركيب يحتمل ألوفا من وجوه الأوضاع، ودلالة هذه الأوضاع عن المعاني المستورة الّتي يحتملها كلّ تركيب، ومزيَّة كلُّ تركيب في اشتماله على وجوه البيان القائمة في نفس المُبِين عنها، وبهذا الكتاب و صِنوِهِ [يقصد أسرار البلاغة] أسَّس الجرجانيّ تحليل البيان الإنسانيّ كلّه، لا في اللّسان العربيّ وحده بل في جميع ألسنة البشر. ووضع الجرجانيّ هذا الأساس فلم يسبقه إليه سابق ولا لحقه من بعده لاحق في لسان العرب ولا في غير لسان العرب"43.

لقد كان الجرجانيّ إماما في النّحو إلَّا أنَّه سُبق بالعلماء الأوائل الّذين بحثوا فيه وَأَلَانُوا عَصِيَّ الطَّريق إليه فنُسب إليهم، أمَّا علم المعاني فلم يسبق فيه بمن له مثل جهده رحمه الله فنُسب إليه دون غيره44.

وقد ذَكَرَ أنّ الّذي أودعه الدّلائل ليس نحوًا بل هو بحث فيما ترجع إليه مزايا الكلام، ثمَّ بيان سبيل إدراك هذه المزايا إدراكا تضع اليد عليها، وهذا غير النّحو لأنَّ النّحو يوجد في كل ضروب الكلام، كما أنَّ النّحو في جيّد الكلام المختار هو النّحو الّذي في غيره، وكذا النّحو الّذي في القرآن هو النّحو الّذي في شعر العرب، فرفع الفاعل في القرآن كرفع الفاعل في قول أحدهم: جاء زيد. أمَّا التَّنكير في قولنا: جاء رجل ليس كالتَّنكير الّذي في قوله تعالى: "مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ" [الأحزاب23]. ولهذا قال في الدّلائل: "ثمَّ إنَّا نرى هذه كلّها موجودة في كلام العرب ونرى العلم بها مشتركا بينهم... إنَّها حقائق لا تتبدَّل ولا يختلف بها الحال"45.

وبهذا القول نعرف أنَّ الجرجانيّ وهو يضع هذا العلم الشّريف كان يجمع بين معاني النّحو الّتي نبغ فيها الأوائل وخصوصا سيبويه، وأوصاف البلاغة الّتي نبغ فيها الجاحظ في كتبه. ولهذا فقد كان يصف كثيرا من شواهده بأوصاف مستمدَّة من أوصاف العلماء والبلغاء في لغة العرب، ثمّ يُتْبِع ذلك بيان العلَّة الّتي ترجع إلى معاني النّحو. ومثال ذلك تعليقه على أبيات إبراهيم:

فَلَوْ إِذْ نَبَا دَهْرٌ وأَنْكَرَ صَاحِبٌ !!! وَسُلِّطَ أَعْدَاءٌ وَغَابَ نَصِيرُ

تَكُونُ عَنِ الْأَهْوازِ دَارِي بِنَجْوَةٍ !!! وَلَكِنْ مَقَادِيرٌ جَرَت وَأُمُورُ

وَإِنِّي لأَرْجُو بَعْدَ هَذَا مُحَمَّدًا !!! لِأَفْضَلِ مَا يُرْجَى أَخٌ ووزِيرُ

"إنَّك ترى ما ترى من الرَّوْنق والطَّلاوة ومن الحسن والحلاوة، ثم تتَفَقَّد السَّبب فتجده إنّما كان من أجل تقديمه الظّرف ... على عامله ... ثم أَنْ قال تكون ولم يقل كان... ثم أَنْ نَكَّر الدَّهر ... إلى قوله "وكلُّه من معاني النّحو كما ترى، وهكذا السَّبيل أبدا في كلّ حسن ومزيَّة ..."46.

وله في باب الاستشهاد عجائب وخواطر تحَيِّرُ ذَا اللُّبِّ فيقول: "وجُمْلَةُ ما أَردتُ أنْ أبيِّنَه لك أنَّه لابدَّ لكلِّ كلام تستحسنُه، ولفظ تستجِيدُه، من أنْ يكونَ لاستحسانك ذلك جهة معلومة، وعلَّة معقولة، وأنْ يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحَّة ما ادَّعينَاه من ذلك دليل".

إنَّ تحليل الجرجانيّ لشواهده باب جديد في قراءة الشّعر، ولم تكن هنالك قواعد سبقت أبيات الشّعر للاستشهاد بها كما هو المتبادر في ذكر الشّاهد، وإنّما كانت هذه الشّاهد هي القاعدة والمثال لأنَّ الجرجانيّ تتبَّعها واستخرج منها المادَّة البلاغيّة الّتي كتبها47 ولأنَّ كتاب دلائل الإعجاز يدور كلُّه حول شرح مزايا النّظم وخصائص سياق اللّفظ، فإنَّه يُعدّ ثمرة لقراءة كلام العرب وتتبُّعِه وتفقُّده، وهذا الّذي جعل لهذه البلاغة قيمة لأنّها أصول مستخرجة منَ الكلام العالي.

هذا الكلام يؤكِّد أنَّ حسن الدّلالة ووفاءها هي أهمُّ جهة تحقِّق الكلام فيه ولبُّ القضيَّة، وقد تكون في جهات أخرى كجهة مطابقة أحوال اللّفظ للمعنى، وجهة وقوع معاني النّحو في الكلام على وفق الغرض الّذي تَؤُمُّه.هذه الجهات المختارة والمناسبة لأخذ المعنى عند الجرجانيّ وَأَوْلَاهُما أُولَاهُمَا.

ذكرنا أنَّ مختارات الجرجانيّ كانت من الكلام العالي من كلام العرب شعرا، وأَنَّ من يحلِّل الشّعر ويدرسه لَابُدَّ منْ أنْ يَنْغَلَّ في أدغال الأفكار والخواطر والرُّموز والصُّور حتّى يدرك مالَا يُدرَك إلَّا بثُقُوب الفَهم وشدَّة التَّيقظ48. فالّذي أودع دقائق الصّنعة في عمله لَاقَى الأمَرَّيْن فيها، وليس خبر الفرزدق عنَّا ببعيد، فلا يمكن أنْ يستخرج الدّارس سرَّها إلَّا بمجهود أكثر ممَّا بذله صاحبُها، وكأنَّ الدّارس يقدِّم لنا تجربتَه الذَّاتيَّة في ملابسة النّصوص والتَّعرف على سرِّ الصّنعة، وهذا ما تجده عند الجرجانيّ فإنَّ طريقة التّعامل مع الشّاهد في كتابه نَقَلَتْهَا منْ طوْر التَّكرار والابتذال إلى طور الجدّة والطَّرافة، لأنّه شقَّ طريق الفهم إلى عقول وأفكار وأحاسيس الشّعراء والكُتَّاب، وبهذا فاق كثيرا ما كتبه عنها السّابقون49 .

وقدْ وقف الجرجانيّ في تحليل أسلوب كلّ شاعر على ثلاثة مواقع:

وقف على موقع اللّفظ المنطوق.ووقف على موقع المعنى المباشر للَّفظ المنطوق، ثم وقف على موقع المعنى المقصود من اللّفظ المنطوق.

والوقفة الأهمُّ عند المعنى الّذي ينقلك إلى المعنى لأنّ الوسائط المتعامل معها غير لغويَّة إنّما هي عقليَّة بحتة50 وقد كان الجرجانيّ يمارس وظيفة النّاقد باختياره لنماذج مختلفة، اختيَارُها ونوعُها له صلةٌ بالغرض الّذي يتبنَّاه وحلّلها وعلّلها. ويتفقَّد النَّمط من أنماط التَّراكيب في صيغ شعريّة متعدّدة ثم يُعمل النّظر فيها.

وقد كان ينظر إلى كلِّ شاهد نظرة دقيقة ويعدُّه قضيَّة مفردة لا سبيل في تحليله إلى القول المجمل، وإنّما ينظر في خصوصيَّاته الّتي تقتضي دراسةً تَبحثُ مواقع الكلمات فيها، وبهذا يدخل هذا النّظر في صميم البنيَّة الأدبيّة. ولهذا وضع شروطا في تحليل الشّاهد نُجمِلُها في:

- لكلِّ كلام مُستحسن علَّة فاصلة فلا حسن إلَّا بوجود علَّة، وعدم ظهورك عليها ليس دليل على عدم وجودها بل دليل على قلَّة خبرتك بأبنية الشّعر .

- القدرة على وصف العلَّة وشرحها أو الإبانة عن الاستحسان وعلَّته.
- والعلَّة تكون خاليَّة من الغموض بل سبب وجودها وطلبها شرح وطرح الغموض.
- الدّليل على العلّة والبرهان على القول وبالحجّة.
- تتبُّع كلام العرب لاستظهار علل الحسن، والجمال الفنّي لا يكون إلّا مع وجود الطّبع المصقول.

يقول الجرجانيّ: "... ولا يكفي أن تقول إنَّه خصوصيَّة في كيفيّة النّظم [علّة] وطريقة مخصوصة في نسق الكلام بعضها على بعض [علّة أخرى] حتّى تصفوا تلك الخصوصيّة [وصفها] وتبيّنوها [طرح الغموض] وتذْكُرُوا لها أمثلة [الدّليل والحجّة والشّاهد] وتقولوا مثل كيتَ كيتَ، [ولا يكون القول إلّا مع وجود الطّبع في التّذوق]..."51. ولهذا كان الجرجانيّ قد اعتمد منهجا واضحا ومبرّرا في تعامله مع الشّاهد، واعتمد خطة عمل دقيقة في اختيارها و توظيفها وتحليلها ونقدها... نحاول أن نتتبَّع هذه الخطوات من خلال كتاب دلائل الإعجاز فيما يلي:

التَّمهيـد للـشّــاهـد :

إنّ الأمور في أغلب حالاتها تُحكم من بداياتها، لأنّ النّهاية غير متوفِّرة وإنْ كانت متوقَّعة، ولذلك تسهيل الفهم وإعانة الطَّالب له تكون بتقديمها في حلَّة بهيَّةٍ تشوِّق السَّامعَ وتنبِّه الغافلَ، وقد كان البلغاء يسارعون إلى هذه المقدِّمات لنيل رضى وإقبال القارئ52.

وقلّما تجد مبحثا في الدّلائل إلَّا ويقدِّم الجرجانيّ بمقدّمة تشوّقك إليه، ويفتح الطّريق إليه حتّى ما يكون بينك وبينه إلّا انتباهك، أنظر مثلا بداية القول في شواهد الحذف (القول في الحذف) فَقَبل أنْ يتكلَّم عن حذف المتكلّم يقول: "فهذه جملة قد تُنكرها حتّى تخبر وتدفعها حتّى تنظر، وأنا أكتب لك بديئا أمثلة ممَّا عرض فيه الحذف ثم أنبِّهك على صحَّة ما أشرت إليه، وأُقيمُ الحجّة من ذلك عليه، أنشد صاحب الكتاب:

اَعْتَـادَ قَلْبُكَ مِـن ليلَى عَـوائِـدُهُ !!! وهَـاجَ أَهْـوَاءَكَ المَكْنُونَةَ الطَّلَلُ

رَبْـعٌ قَـواءٌ أَذَاعَ الـمُعْصِرَاتُ بِـهِ !!! وَكُـلُّ حَيـرَانَ سَـارٍ مَـاؤُهُ خَـضِلُ53

وقال في فصل آخر: "وهذا فنٌّ آخر من معانيه عجيب، وأنا ذاكره لك قال البحتريّ في قصيدته الّتي أوّلها:

!!! أَعَـنْ سَفَـهٍ يَـوْمَ الأُبَيْرِقِ أَمْ حِلْـمِ54

ويقول في فصل (في الّذي خُصوصا): " اِعلَم أنّ في الّذي عِلمًا كثيرا و أسرارا جمّة، وخفايا إذا بحثت عنها وتصوَّرتها اِطَّلعت على فوائد تُؤنس النّفس، وتُثلج الصَّدر بما يفضي لك إليه من اليَقين، ويؤدِّيه إليك من حسن التَّبيِين، والوجه في ذلك أنْ تتأمَّل عبارات لهم فيه لِمَا وُضع، ولأيِّ غرضٍ اجْتُلِب، وأشياء وَصَفُوه بها من ذلك قولهم: "إنّ الّذي اجتلب ليكون وُصلة إلى وصف المعارف بالجمل ...."55 وهكذا الحال في كثير من الأبواب.

ثم يضيف إلى ذلك أحيانا تمهيدا لِلَّون الجماليّ والأسلوبيّ للشّواهد الّتي يريد ذكرها، يقول: "(في باب القول في الحذف) ومن المواضع الّتي يطّرِدُ فيها حذف المبتدأ (القطع والاستئناف) يبدأون بذكر الرّجل، ويقَدِّمون بعض أمره، ثم يَدَعُون الكلام الأوَّل ويستأنفون كلاما آخر، وإذا فعلوا ذلك أَتَوْا في أكثر الأمر بخبرٍ من غير مبتدإٍ، مثال ذلك قوله:

وَعَـلِمْـتُ أنّــي يَــوْمَ ذَا !!! كَ مُـنَازِلٌ كَـعْبـا ونَـهْـدا
قَـوْمٌ إذا لَـبِسُوا الـــحَدِيـ !!! ـــدَ تَنَمَّرُوا حَلَقًا وَقِـدَّا56

ويقول في باب اللّفظ والمعنى: فصل في إنَّ ومواقعها:"ومن خصائصها أنّك ترى لضمير الأمر والشّأن معها من الحسن واللّطف مالا تراه إذا هي لم تدخل عليه، بل تراه لا يَصْلُح حيث صَلُحَ إلَّا بها وذلك في مثل قوله تعالى:"إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ"57 [يوسف90]،ولا شكَّ أنَّ هذا التَّمهيد وتلك التّهيئة تجعل النّفس مستعدة لتلقّي الجمال وأوجه البيان فيما سيذكره من شواهد.

رَبْطُ الشّاهدَ البلاغي بسابِقِه ولاحقه "وضعه في السّياق الخاص"

يقول الجرجانيّ في أسرار البلاغة: "... المقصود البيت الأخير ولكنَّ البيتَ إذا قُطع عن القطعة كان كالكِعَاب تفرَّدَت عن الأتْراب فيَظْهَرُ فيها ذلُّ الاغتراب ..."58 وهذه النّظرة تُعين على فهم جمال الأسلوب وتُوصل إلى صُلب المسألة، وليس أقبح من قراءة بيت واحد وقطعه عن أصله وادِّعَاء عدم التَّمكّن فيه، وأنَّه غريب لم يُعرَف محلّه ولا موطنه فلا بدَّ من تذوُّق الشّعر جُملةً وتحليلُه مُفصَّلا. فتذوُّقه بكشف علاقة آخره بأوّلِه ووصل أوّله بآخره.

وليست فكرة النّظم الّتي دعا إليها الجرجانيّ عن هذا القول وأسلوبه بغريبة بل هي منه، يقول الجرجانيّ: "واعْلَم أنَّ منَ الكلام ما ترى المزيّة في نظمه والحسن ... فأنت لذلك لا تُكبِر شأنَ صاحبه ... حتّى تستوفيَ القطعةَ وتأتيَ على عدَّة أبيات ..."59. وبهذا المنهج أعطَى للبلاغة حقَّها في كشف مواطن الجمال الفنِّي في القطعة الأدبيّة الرَّائعة ولم يكتف بجلب الشّاهد لخدمة الفكرة مبتورا من سياقه.

رفـد الشّاهد بشـواهـد تُدَعِّمُها وأمثلــة تُوَضِّحها:

يريد بهذا مزيدا من الإقناع للقارئ بالفكرة الّتي يريد، والهدف الّذي يصيب، وفي الوقت ذاته يُوجِد له مادة تطبيقيَّة واسعة، ويترك له المجال ليجول بفكره في أسرار الجمال فيها60.

ففي موضوع الحذف مثلا يُورد تسعَة شواهد متتاليَّة، بعضها يصل إلى أربعة أبيات لا يفصل بينهما إلَّا بتعليق بسيط وأحيانا لا يذكر شيئا بينها، ثمَّ يقول بعد سرد هذه الأبيات الشّاهد :"فتأمَّل الآن هذه الأبيات كلّها واستقرِها واحدا واحدا، وانظر إلى موقعها من نفسك، وإلى ما تجده من اللُّطف والظَّرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها ..."61.

ويظهر الجرجانيّ اهتمامه بقارئ الكتاب ودارس الأبيات على العموم من أجل إقناعه بالفكرة الّتي يريد من خلال تقديم مجموعة من الأمثلة التَّطبيقيَّة لشحذ فكره من أجل استخراج المطلوب، ولا يتوقَّف عند هذا الحدِّ بل يزيد في ذكر شاهد أقوى وأكثر قوَّة ودلالة وبرهانا آخر وكأنَّه لم يكفه ما ذكر أو رأى أنَّ فكر القارئ لم يزل يتخبَّط في الغموض ولم يُزَلْ عنه الشّكُّ في الموضوع فيقول: "وإنْ أردت ما هو أصدق في ذلك شهادة، وأدلَّ دلالة، فانظر إلى قول عبد الله ابن الزُّبير يذكر غريما له قد ألحَّ عليه:

عَرَضتُ عَلى زَيدٍ ليَأخُذ بَعضَ مَا !!! يُحاوِلُه قَبلَ اعْتِرَاض الشَّواغِلِ
فَدَبَّ دَبِيبَ الْبَغلِ يَأْلَـمُ ظَهـرَه !!! وقَـال تَعَلَّـمْ، إنَّـنِي غيْـرُ فَاعلِ
تَثَـائَبَ حَتَّى قُلْتُ: دَاسِعُ نَفْسِـهِ !!! وأخْرَجَ أنيَـابًـا لَـه كَـالمَعاوِلِ62

والبيت الشّاهد هو الأخير ولم يُقطع عن سياقة فجاء به مع إخوته ليلتّم شمله، ويُفهم بجمعه لا مفردا. فتأخذ المُراد ومعه السّياق، ويكون ذلك أَدْعَى لفهمك وأقوى حجّةً عندك، وعقدة الشّاهد وجوهره قوله: "داسَعَ نَفْسَهُ" أيْ هو داسع نفسه، ثم لا يكتفي بذلك ولا هذا، بل يزيد رفع الشّاهد بالشّاهد حتّى تَفْهم أو تقول لَيْتَه سكَتَ. لكنَّه ما يلبث حتّى يقرِّر هدفه فيقول: "وإذْ عَرَفتَ هذه الجملة من حال الحذف في المبتدأ، فاعلم أنَّ ذلك سبيله في كلِّ شيء ..."63.

وقال في باب التَّقديم والتَّأخير– الخبر–: "وممَّا هو بهذه المنزلة في أنَّك تجد المعنى لا يستقيم إلَّا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم، قوله تعالى: "إِنَّ وَلِـىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ" [الأعراف196].

وقوله تعالى: "وَقَالُوا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً" [الفرقان5]، وقوله تعالى: "وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ"64 [النّمل17]

فهو كما ترى يورد الشّاهد تلو الشّاهد، يقوِّيه ويزيد في الفهم بسطة.وفي فصل التَّقديم والتَّأخير يقدِّم الشّاهد كما قدَّمنا لحمل الفكرة النّظريّة والنُّهوض بها، وبَعْدَ بسط الفكرة ينهض إلى الشّاهد المختلفة يبدأ بالمصنوع من القول كقوله: "أحدهما جَلِيٌّ لا يُشْكِلُ... ومثال ذلك أن تقول: أنا كتبت في معنى فلان ..."، ثم يحتج لذلك بشاهد من كلام العرب بمثال فيقول: "ومن البيِّن في ذلك قولهم في المثل أَتُعْلِمُني بضبٍّ أنا حرشته"65. وقد يَستشهد بالبيت الشِّعريّ ويدعمُه بآية قرآنيَّة وأخرى، وثالثة.

هذا المنهج في إيراد الشّاهد الأساسيَّة للتَّحليل تَعْقُبها شواهد رديفة للتَّمرين، غير أنَّ هذا العمل يتغيَّر عندما تكون للفكرة خصوصيَّة من العمق والخفاء، فإنَّ شواهدَ الجرجانيّ تكون كلُّها مُجْتَلبَة حينئذ للتَّحليل والتّفسير والتَّمحيص، أي كلُّها في صعيد واحد، ومرتَبَة واحدة. مثال ذلك كلامه على بعض أخطاء الشّعراء حين يبيِّنُها دون أنْ يأتي بالمثال الرَّديف يقول: "وهذه جملة من وصفهم الشّعر وعمله، وإدلالهم به، يقول أبوحية النُّمَيري66:

إنَّ القَصَائِـدَ قَـدْ عَلِمْنَ بِـأَنَّـني !!! صَنَعُ الـلِّسَانِ بِـهنَّ لَا أَتَنَحَّـلُ
وإذَا ابْتَدَأْتُ عَرُوضَ نَسْجٍ رَيِّضٍ !!! جعلَتْ تَـذِلُّ لِـمَا أُرِيـدُ وَتُسْهِلُ
حَتَّى تطاوِعُني وَلَـو يَرْتَـاضُهَا !!! غَيْـري لَـحَـاوَل صَعْبَـةً لا تُقبَلُ

ويَليهَا بقول تميمٍ بن مقبل لا يريد منها تمثيلا، بل هو أيضا شاهد رئيسيٌّ مرفوع بالقول لذاته، وقولُ عديٍّ بن الرِّقاع بعده، وكعب بن زهير، وبشار بن برد، وله أيضا، و...67 وهكذا كلُّها شواهدَ رئيسيَّة مرادُه بالدّرس وأصله.

عـقـد الموازنـات بيـن الشّاهد:

وهذا الباب منَ النّقد عُرِفَ فيه لجرجاني بقوَّة الطّبع، وشدَّة اليقظة والحذر، وقوَّة البصيرة، وكثرة المطالعة ومعرفته بكلام الشّعراء، وهو باب في نقد الشّعر، أَصَّلَهُ على بُعدِ ذَوْقٍ وَسلِيقَة أصيلة، وربَطَه بالفكر والحسِّ من أجل تمِييز كلام من كلام.

وتكون الموازنة بين بليغ القول ورديئه، وقد تكون بين درجات البليغ، وقد وضع بابا في الدّلائل لأجل ذلك يقول: "وقد أَرَدْتُ أنْ أَكْتُب جملة من الشّعر الّذي أنتَ ترى الشّاعريْن فيه قد قالا في معنى واحد، و هو ينقسم قسمين: قسم أنت ترى أحد الشّاعرين فيه قد أتى بالمعنى غُفْلا ساذجا، وترى الآخر قد أخرجه في صورة تروق وتُعْجِب، وقِسْمٌ أنت ترى كلّ واحد من الشّاعريْن قد صنع في المعنى وصوّر"68.فيذكُر البيت وما يقابله من حسنِ القول أو رديئه أو مساويه في الإبداع والتّصوير.

وقد أورد ما يقارب خمسين موازنة أو يزيد، شملت مئةَ بيت، وهذا عمل جليل في إبراز المعاني وروائع النّظم لذلك يقول: "وإذا كان الشّيء متعلّقا بغيره، ومقياسا على ما سواه.كان ممّا يستعان به على تقريبه من الأفهام وتقريره في النُّفوس أنْ يوضع له مثال يكشف عن وجهه ويأنس به، ويكون زِماما عليه يمسكه على المتفهّم له والطالب لعلمه"69.

الشَّـرحُ والتَّفْسيـــرُ والـتَّأْويـلُ:

وهو العرضُ الأدبي للشّواهد، وإظهار جماليَّات القول، وسرِّ الصِّناعة في التَّراكيب، وبديع الأساليب، وقوّة اللّفظ، وإصابة المعنى، وأَسْرِ القلوب، والتّأثير على العقول، فإنّ سرَّ النّصوص ووجودها ليست هذه الألفاظ وإنْ كانت منه، ولكنّها تلك العلاقات الكامنة والرَّوابط المتمكِّنَة، والصِّلات العجيبة بين الكلمات، وليسَ من ورائها إلّا العقل، فالعقل هو الّذي يُحدِث تلك المشَابِكَ70.

يقول الجرجانيّ: "وهذه الرِّسالة الحزينة الّتي تهادَتْ إلينا من ودائع قَلْب قائلها، إنّما حملتها إلينا هذه الوشائجُ والشَّوابك والعلائقُ"71.ويقول: "وليس يتصوَّر مثل ذلك في الكلام، لأنّه لا سبيل إلى أنْ تجيءَ إلى معنى بيتٍ من الشّعر، أو فصل من النّثر، فتؤدِّيه بعينِه وعلى خاصيَّته وصفتِه بعبارة أخرى حتّى يكون المفهومُ من هذه هو المفهوم من تلكَ، لا يخالفه في صفةٍ ولا وجهٍ ولا أمر من الأمور، ولا يغرنَّك قول النّاس: "قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فأدَّاه على وجهه" "72.

يميِّز الجرجانيّ في تحليله للشّواهد بين المعنى الّذي هو الغرض، والمعنى الّذي هو الصُّورة "فالغرض هو المفارق للهيئة اللّغويّة أي البناء النّحويّ والمجازيّ، أمَّـــا الصُّـورة فهي المعنى الّذي لا تَحصُل عليه إلّا بواسطة الهيأَة اللّغويّة إذْ لَا يُنبئُكَ عن بنائه النّحويّ والمجازيّ، وغيرُ منفصل عن طبيعة تلقِّيه".73 أيْ إذا كان النّظم واحداً، فإذا اختلف النّظم وتغيّر فلا بدَّ من أن يتغيَّر المعنى74. ومن هنا يجوز أداء الغرض الواحد بهيآت مختلفةٍ ولا يتأتَّى ذلك بالنِّسبة للمعنى بما هو صورة أو تشكيل يُحدِث أثراً جماليّاً في المتلقّي. ولهذا فقد قسَّم الجرجانيّ الكلام إلى ضربين:

- ضرب أنت تصل فيه إلى المعنى من دلالة اللّفظ.
- ضرب أنت لا تصل فيه إلى الغرض منه بدلالة اللّفظ وحده، ولكنْ بذلك اللّفظ على معناه الّذي يقتضيه موضوعه في اللّغة، ثمَّ تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا على الكناية والاستعارة والتّمثيل"75. " فاعلَم أنّهم يَصِفُون كلاما قد أعطاك المتكلّم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى، فَكَنّى وعرَّض ومَثَّلَ واستعار، ثمَّ أحسنَ في ذلك كله وأصاب، ووضع كلَّ شيء منه في موضعه وأصاب به شاكلته..."76.

لقد استعان الجرجانيّ بهذه الآليَّات بالوصول إلى جماليات القول وسرِّ الصّنعة فيه، ولذلك قام بعرض الدَّلالات والمعاني المأخوذة والمحتلبة من الشّاهد، وعرضها بأسلوب لا يقلُّ وصفا في الجمال الفنِّي من أسلوب هذه الشّاهد، ويُمكننا رصد هذه الخصائص في العرض الأدبيّ للشّواهد في إطار تحليلها المتميِّز فيما يلي:

وصف الشّاهد وبيان الجَمال الفنِّي فيها:

القارئُ للدَّلائل أو للأسرار قبله يرى قمّة الإبداع في نصوصه فأنت لا تقرأُ لِنَصٍّ كَتَبَهُ عالم في علمٍ مَا يمتاز بالطَّرح العلميّ والموضوعيّ، وهذا ما عهدناه في جلِّ الكتب العلميَّة أو الدّراسات ولو كانت في باب الأدب والبلاغة، بل يُعاب كلّ العيب إذا كانت لغتُه أدبيّة إبداعيّة، وكأنَّ الإبداع في التّركيب واللّفظ مقتصر على الشّعر والخُطب وفي المناسبات دون غيرها، ولكن الجرجانيّ استطاع أنْ يحوِّل طرقَ الكَشْفِ عن جماليَّات البلاغة إلى قطعٍ أدبيّة رائعة، وقد دعاه ذلك دقَّته في التّأمل، وحسّه المرهفِ في تلمُّس مواطن الجمال، يقول في باب الحذف: "هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسّحر، فإنَّك ترى به ترك الذِّكر أفصحَ من الذِّكر، والصَّمت عن الإفادة أَزْيَدَ للإفــادة، وتَجِدُكَ أَنطَقَ مـا تكون إذا لم تَنْطِقْ، وأتــمَّ ما تكون بيانا إذا لم تُبِن"77.

ويقول في الكلام عن النّحو بعد أنْ عرَضَ الأدلَّة في غلط القوم عن زهدهم فيه يقول: "ثمَّ إنَّا وإنْ كنَّا في زمان هو على ما هو عليه من إحالة الأمور عن جهة، وتحويل الأشياء عن حالاتها، ونقل النُّفوس عن طباعها وقلب الخلائق المحمودة إلى أضدادها، وَدَهْرٍ ليس للفضل وأهلِه لديهِ إلَّا الشَّر صِرْفا والغَيظ بحتًا .."78.

وهذا غيضٌ من فيضٍ بل الكتاب على هذا المنوال سار، وعلى هذا المنهج كان، والذّوق الرّفيع أهم ما يمتاز به الجرجانيّ بل إنَّه الأداة الّتي سخَّرها لإدراك ما يخفَى من الأمور، والكشف عن أسرار الأساليب البيانيَّة. وما نقم النّاس عن المتأخّرين أصحاب الحواشي و التّلخيصات إلَّا بسبب أساليبهم الجافَّة الّتي لا تسْتَرْوِحُ منها نسيم الجمال79.

ربــط الشّــاهد بـمَقصِدِ صــاحبِه:

يقول الجرجانيّ: "...وإذا ثبت أنَّ الخبر و سائر معاني الكلام، معان يُنشئُها الإنسان في نفسه، ويُصَرِّفُها في فكره، ويُناجي بها قلبه ويراجع فيها لبَّهُ. فاعلَم أنَّ الفائدة في العلم بها واقعة من المُنشئِ لها، وصادرة عن القاصد إليها..." 80.وهذه العبارات من كلام الجرجانيّ تتَّصل بمقاصد المتكلّمين، ولهذا عَنِيَ بها الجرجانيّ، والحديث في مقاصد المتكلّمين هو النّصف الأوَّل في كلام الجرجانيّ، إذا صحَّ التَّقسيم، لأنَّ علم المعاني ظهر بيْنَ يديْ الجرجانيّ بحركة قريبة، وبضربة بالغة الذَّكاء والنَّفاذ والإصابة والتَّوفيق، هي أن جارَ على معاني النّحو وأدارها على مقاصد المتكلّمين، ونظر في مدى إصابة معاني النّحو لهذه الأغراض والمقاصد، ورأى أنَّ في هذه العلاقة يكمن علم شريف هو علم بلاغة الكلام وإعجاز القرآن، وأنَّ حظَّ الكلام من الجودة إنّما هو حظُّه من هذه المواءَمَة بين معاني النّحو ومقاصد المتكلّمين81.

وهذا كثير في تحليل شواهد الجرجانيّ فدائما ما يبحث عن القصد المراد من الشّاهد، وهو قصد المتكلّم سواء كان بيت شعرٍ أو فصل نثرٍ، أو آيٍ كريمة أو أثر شريف، يقول الجرجانيّ: "فليس الكلام إذنْ بمُغْنٍ عنك ولا القول بنافعٍ، ولا

الحجّة مسموعةٌ حتّى تجد من فيه عونٌ لك، ومن إذا أبَى عليك أَبىَ ذاك طبعُه فردَّه إليك ... ...وصَرَفَ ناظره إلى الجهة الّتي إليها أومَأْت، فاستبدَل بالنِّفار أُنْسا، وأراكَ من بعد الإباء قَبولًا"82.

هذه جملة صريحة ذكرها في آخر كتابه وكأنَّه يعتذر عن زمان لم يفهمه، أولم يربط أحدٌ دليلَه بكلامه وبمقصده، وهي دعوى صريحة لأنْ يُفَكَّر في وجوه طرق دلالة الكلام على مراد المتكلّمين، والتّعرف على الخطوات الّتي يخطوها السّامع ليصل إلى مراد القائل ابتداء من سماع ألفاظه.

مُخـاطبَـة المُتـلـقّي والاهتـمــام به

فالمتلقي هنا القارئ ، والقراءة سطحيَّة وعميقة مُنْغلّة في عمق فكر العلماء، ويقول في تصوُّره للمتلقِّي الإيجابي والفعَّال: "فإذَا رأيتَ البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يَسْتَجِيدُ نثرا ... فاعلم أنَّه يُنْبِئُك إلى أمرٍ يقعُ من المرء في فؤاده وفضلٍ يقتدحهُ العقل من زناده..."83. فالتّلقي إحساس موطنه القلب، هو حادث فيه نتيجة الأثر النّفسي الّذي يتركُه العمل الإبداعي، ولعلَّ أهمَّ ما يدعو الجرجانيّ إليه القارئَ هو طولُ التّأمل في الكلام البديع. والتّأمل في عرف الجرجانيّ وسيلة لاستكشاف جماليّة النّص وقوانينه المؤثِّرة، وهو عمليَّة تعتمد على العقل قبل أيِّ شيء آخرَ، ذلك أنَّ الرّوابط والشّوابك البلاغيّة الّتي يَنْبَنِي عليها التّأثير الجمالي لا تُفَكُّ إلَّا بعد جهد عقليٍّ، يجعل المتلقّي يَحسُّ بمتعةٍ ذهنيّةٍ لم يدرك سرَّها إلَّا بعد معاناة قاسيَّة.

ويبقى غياب هذه الوسيلة حاجزا أمام كشف مكامن الجمال في النّصوص، فانظر إلى قوله: "ومن دقيق ذلك وخفيّهِ أنَّك ترى النّاس إذا ذكروا قوله تعالى: "وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا" [مريم 4] لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة "84. وهنا ترى كيف يعاتب الجرجانيّ عدم إعمال هذه الوسيلة في فهم هذا التّركيب البديع في الآية وكَوْن المزيّة البلاغيّة فيها هي الاستعارة وفقط. فهؤلاء لا فَرْقَ عندهم بين هذه الآية وقولنا"وشاب رأسي كلّه"،"وابيَضَّ رأسي كلّه" يقول ولكنْ لأنْ سُلِكَ بالكلام طريقُ ما يُسنَد الفعل فيه إلى الشّيء،وهو لما هو من سببه فيُرفَع به ما يُسنَد إليه"ويزيد في التّأويل فيقول:"وذلك أنَّا نعلم أنَّ اشتعل للشَّيبِ في المعنى، وإن كان هو للرّأس في اللّفظ..وإنْ أُسند إلى ما أسند إليه، يُبَيِّن أنَّ الشَّرف كان لأنْ سُلِكَ فيه هذا المسلكَ، وتُوُخِيَ به هذا المذهب..وهل ترى الرَّوعة الّتي كنت تراها ؟"85.

والتّأمل يحتاج إلى الموازنة بين أنواع الكلام، والموازنة تحتاج إلى الدِّقة للتَّمييز بين ما تتوافر فيه الخصائص الجماليّة، وبين ما تنعدم فيه تلك الخصائص. بين ما يجعل كلاما أبلغ من كلام، ولا يمكن التَّوصل إلى هذا المطلب إلَّا بعد إعمال الفكر بالتّحليل والتّأويل86.

إذا عرفت التّأمل عند الجرجانيّ فهمت أنَّ القارئ عنده لابد أن يكون من أهل الذّوق والمعرفة لكي يصل إلى إعمالِ هذه الوسيلة في التّفريق بين وجوه الكلام وأسراره، ومن ثمَّ إذا صلح هذا عنده صار مشاركا مساهما في تشكيل النّصّ وبناء دلالاتِه: "فالمتلقّي يسهم في إنجاز المعنى وخلق الوظيفة الجماليّة بقدر ما تتوافر في النّصّ المؤثِّرات اللّازمة في تحقيق ذلك"87.

ولم ينفصل تحليل الجرجانيّ للشّواهد الشّعريّة وتعليله لجماليَّاتها عن سير أحوال المتلقّي، وإظهار التّأثيرات الّتي تحدثها في النُّفوس، وفي أكثر من موضع أورد الجرجانيّ ألفاظا تشكِّل الأثر الجمالي للُّغة في نفس المتلقّي يقول: "أَفَتَرَى لشيء من

هذه الخصائص الّتي تَملَؤُك بالإعجاز روعةً، وتُحضرُك عند تصوّرها هيبةً تحيط بالنّفس من أقطارها" ويقول معلّقا على لفظ لم يحسن استعمالها: "تجد لها من الثّقل على النّفس ومن التّنغيص والتّكدير أضعاف ما وجدت هناك من الرَّوْحِ والخِفَّة ومن الإيناس والبهجة"88. وعادةً ما يرجع في الاحتكام إلى حال المتلقّي: "ارجع إلى الّذي هو الحقيقة ... ثم اسْبِر حالك هل ترى ممّا كنت تراه شيئا"89.

ويقول في موضع آخر: "وهكذا إذا استقريْتَ التّشبيهات وجدت التّباعد بين الشّيئين كلّما كان أشدَّ كان إلى النُّفوس أعجب"90.

ومن هنا يجعل المتلقّي طَرَفاً في العمليَّة الإبداعيَّة الشّعريّة، ومعيارا تُقاس به جماليّة الصُّورِ الشّعريّة، لقد انتقل الجرجانيّ بالمتلقّي إلى عالم الإبداع لأنَّ الجمال والإحساس به ليس حِكرا على طائفة المبدعين بقدر ما هو أمر يتَّضح عند القارئ مع تأمُّله.

الذّوق وأثره في تحليل الشّواهد وتلقّيها:

منْ أبرز الأفكار الّتي كانت تستقرُّ عند الجرجانيّ في مستقرّها، وتُلقى عندها مراسيها، مبنى الطباع ومفهوم الجِبِلَّة وسجيَّة الطّبع..وما يشبه ذلك91. وهو أصل أصيل يرجع إليه الاستحسان،لأنَّ اللّغة ذات شقَّين مانتعلَّمُه بالمواضعة أي وضعُ لَفْظ وجَرْيُ البِناءِ عليه،وشقٌّ مغروس في الطّبع ومُكْتَسَب غيرمتكلَّف

إنَّ في غرائزنا جميعا أصول المعاني الّتي في الشّعر كلِّه والكلام كلِّه، والّذي فعله امرؤ القيس وغيره هو أنَّه تناول المعاني من هذه الأصول القائمة في نفسه كما هي قائمة في نفوسنا، وصرفها في فكره وناجى بها قلبه وراجع فيها عقله، وصنع منها الصُّور الّتي صنع، فكان أَبَا عذر ما صنع92. والأصل البلاغي يكون أدوَمَ وأبْقَى إذا ارتبطَ بأمرين:

- الفطرة الإنسانيَّة وهي مبنى الطِّباع.
- طرائق اللّغة في الإبانة عن المعاني، وطرائق متكلّميها في الإبانة عن مقاصدهم.

ولزوم سجيَّة الطِّباع أصل الاستحسان كلِّه، لأنَّها تَنْفي التَّكلُّف، فقد قال في باب الجناس والسَّجع وهما مظنَّة التَّكلُّف: "فلزوم سجيَّة الطّبع أمْكَن في العقولِ وأبعَد من القَلَقِ وأوضَحَ للمراد"93.

ولا بدَّ من التَّفريق بين التَّكلف والاحتفاء بالكلام وصقله وتهذيبه. فالبعد عن التّكلُّف واجب والاحتفاء بالكلام واجب، فالأوَّل يُناقض سجيَّة الطّبع والثّاني من صميم سجيَّة الطّبع94، لأنَّ الّذي هو من مبادئ المعرفة أنْ تعلم أنَّ هذا الكلام أفضل من ذاك، والّذي هو قليل في النّاس تعليل هذا الفضل ومعرفة سرِّ هذه المزيّة، لأنَّ المعوَّل عليه في معرفة الفروقِ والوجوهِ والأسرارِ والعللِ هو إشهاد القرائح وسَبْرِ النُّفوس وَفَلْيِهَا، وما يَعْرِضُ فيها من الأريحيَّة عندما تسمع، وهذا الّذي لا تملك فيه من أمرك شيئا حتّى تظفر بمن له طبع95.

لقد سعى الجرجانيّ في فصول كتابه إلى تربيَة الذّوق عند المتلقّي، وتدريبه على استكشاف مواطن الجمال وذلك من خلال إعطاء الفرصة في إعمال ذهن المتلقّي واستكناه مواطن الحسن وأسراره بعد أن يفتح له بابه كأنَّه يُدَرِّبه عليه كقوله: "فتأمَّل هذه الأبيات كلّها، واسْتَقْرِهَا واحدا واحدا، وانْظُر إلى موقعها من نفسك، وإلى ما تَجِدُه من اللُّطف

والظَّرف"96.ويقول: "وما كان بهذا المحلِّ من الشَّرف وفي هذه المنزلة من الفضل ... كان حريًّا بأن توقَظ له الهمم وتوكل به النُّفوس ... "97.

وهكذا يتَّضح كيف تعامل الجرجانيّ بذوقٍ خالصٍ مع الشّاهد ولم يكتف بذلك بل حرَّك القارئَ لإعمال طبعه، وتحريك ذوقه لتذوّق ما عرفه الجرجانيّ. أمَّا تعليل الذّوق فليس ممكنا دائما فقد يشير إليه ويصفه ولا يفسرُّه يقول الآمدي: "إنَّ للجمال والقُبح أسبابا وعِلَلًا يمكن أحيانا لأهل العلم بالشّعر الوقوفُ عليها، إلَّا أنَّه أدرك أنَّ بعض مواضع الجمال والقبح لا يمكن بيان علَلِهَا والكشف عن أسبابها، وإنّما يَهتدي إليها صاحب الذّوق دون أنْ يتمكَّن من الاحتجاج لها"98.

وفي الأخير إنَّ استحضار هذه الشّاهد وجمعها وانتقائها من رياض الشّعر والنّثر خضع لعمليَّة نقديَّة هامَّة وبارزة، وقد كان الجرجانيّ يمارس فيها مهمَّة النّاقد باختياره النَّوع والشَّكل، وصلتها بالغرض الّذي يتبنَّاه ويحلِّلها ويعلِّلها، ويردِفُ لها الأمثلة ويوضِّحها بما يقابلها، والشّاهد كثيرة والجرجانيّ أمامها ناقد بارع، وذوَّاق متمرِّس يأخذ من هذه الرَّوضة ما يخدم بحثه، ويكون حجّة له ومثالا يبتغِيه، سواء من حيث الجودة والجمال وإصابة صاحبه، أو من حيث الرَّداءة وكبوة صاحبه. وبعدها يقرن الشّاهد بعبارات تدلُّ على قيمته. واستطاع أن يصف البلاغة ويكشف عن جمالياتها بروائع الكلام وأنْفَسِه، ولم يكتفِ بعرض القاعدة أو الفكرة بل عزَّزها بالشّاهد ذات البعد الذّوقي والطّبع الخالص، أعانه على هذا دقَّتُه في التّأمل وحسّه المرهف في تلمُّس موطن الجمال.

وكان في بعض الشّاهد يفرغ من تحليل الخصوصيَّة النّحويّة والكشف عن سرِّها وقيمتها في أداء المعنى، ثمَّ ينتبه إلى أنَّ أصل هذه الدّلالة الرّفيعة لهذا المعنى مستمدة من إشارة الجاحظ، ثم يسوق كلام الجاحظ من كلام سيبويه وقد يستشعر خفاء المعنى عليك فيسوق لك الشّاهد والأمثلة حتّى تنال من الأمر والمسألة مبتغاك، فإن لم تصل فليس الأمر لك ولا أنْتَ أهْلُه.

وقد انتفع بمنهج الجرجانيّ في تعامله مع الشّاهد صاحب الكشَّاف، فهو الجانب التّطبيقي لكلّ كلام الجرجانيّ ودراسته في الدّلائل، وأنَّك لترى جهدا عظيما وتستشعر كلام الجرجانيّ بين كلمات الزَّمخشري.

---

[1] **محمّد بركات أبو علي**: معالم المنهج البلاغي عند الجرجاني، دار الفكر، ط1،1984، الأردن، عَمَّان، ص 115.

[2] **أحمد أحمد بدوي**: عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، مكتبة مصر، ط2، دت، مصر، ص 299.

[3] دلائل الإعجاز، ص 11-27.

[4] **محمّد الطّاهر الحمصي**: الشّاهد الشّعري في الدّلائل، مجلّة المجمع بدمشق، ج 1، مج 73،1998، ص 29.

[5] الدّلائل، ص 146/147/236.

[6] الدّلائل، ص 146-149/184-185/268-269.

[7] الدّلائل، ص 91، 296.

[8] الدّلائل، ص 205، 214.

* وقد ذكر مصطفى الجوزو في مقال له عدم احتجاج الجرجاني بالجاهليين فقال: "عمود البلاغة مركوز على هؤلاء العباسيّين الثّلاثة أبو تمّام والبحتري والمتنبّي، أمّا الجاهليّون فقلّما استشهد البلاغيّون بشعرهم بل أوضح دلالة من ذلك أنْ يستشهد الجرجاني بابن بابك ويضرب صفحا عن كل الجاهليّين والإسلاميّين باستثناء بعض الأمويّين". وهذا غير صحيح لأنّ الجرجاني استشهد بقرابة "200" مئتي شاعرٍ من مختلف العصور.

** وهي: "النّظم والتّرتيب، التّأليف، التّركيب، النّسج والتّحبير، الصّياغة والتّصوير ..." الدّلائل ص 34.

[9] مراجعات في أصول الدّرس البلاغي، ص 102.

[10] الدّلائل: ص 17-23.

[11] الدّلائل: ص 10.

[12] مراجعات في أصول الدّرس البلاغي ، ص 288.

[13] راجع الدّلائل: ص 8-9.

[14] الدّلائل: ص 39

[15] نفسه.

[16] المدخل، ص 324.

[17] نفسه، ص 330.

[18] **ديوان علقمة الفحل**:بشرح الأعلم الشنتمري، تح: لطفي الصّقال و درية الخطيب، راجعة فخر الدّين قباوة، دار الكتاب العربي بحلب، ط1، 1969، سوريا

[19] **عبد القاهر الجرجاني**: الرّسالة الشّافيّة في الإعجاز، مطبوعة مع كتاب الدّلائل تحقيق محمود شاكر، ص 592.

[20] **الحموي، أبو بكر بن علي بن عبد الله بن حِجَّة**: خزانة الأدب وغاية الأرب، تح: كوكب دياب، دار صادر، ط1، 2001، بيروت، لبنان، ج 1، ص 314-315.

[21] الأسرار، ص 34.

[22] **نجاح الظهار**: الشّاهد الشّعريّة في كتاب دلائل الإعجاز، ط 1، 1996، ج 1، ص 1326.

[23] **عبد العزيز الميمني**: الطّرائف الأدبيّة، "المختار من دواوين المتنبّي والبحتري وأبي تمّام، دار الكتب العلميّة،ط1، 1984، بيروت، لبنان، ص198

[24] المدخل، ص 25،27.

[25] الدّلائل: الأخفش، ص 144 / ابن السّراج، ص 145 / سيبويه، ص 73 / أبو علي، ص 96 / الحسن البصري، ص 9 / الجاحظ، ص 53،66،112،165،168 / المجهولون، ص 221،139،155 / الرّسول صلى الله عليه وسلم، ص 11،13،15 / أبو بكر الصديق، ص 12،62 / عمر بن الخطاب، ص 9.

[26] الدّلائل، ص 35.

[27] المدخل، ص 222.

[28] الدّلائل، ص 481.

[29] الدّلائل، ص 483-484.

[30] نفسه، ص 263-264.

[31] الدّلائل، ص 51.

[32] الدّلائل، ص 93-94. وانظر ديوان البحتري ، مطبعة الجوائب ، ط1، 1300هـ، القسطنطينية، ص3،ص 54

[33] **ديوان الخنساء**: اعتنى به حمدو طماس، دار المعرفة، ط2، 2004، بيروت، لبنان، حرف اللّام، ص99

[34] الدّلائل، ص 181-182.

[35] الدّلائل، ص 70

[36] **ديوان بشار بن برد** : شرحه محمد الطاهر بن عاشور، راجعه محمد شوقي أمين، مطبعة لجنة التأليف، دط، 1975، القاهرة، مصر،ج 3

[37] الدّلائل، ص 48

[38] العقد الفريد، ج 1، ص 16.

[39] **عبد الكريم الأسعد**: أحاديث في كلام البلاغة، دار العلوم، ط1، 1405هـ، الرّياض، السّعودية.ص 65.

[40] الدّلائل، ص 89.

[41] البلاغة تطوُّر وتاريخ، ص 218.

[42] الدّلائل، ص 255.

[43] **محمود شاكر**: مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني ودار المدني بجدة، ط1، 2002، مصر. ص 120-121.

[44] نفسه، ص 13.

[45] الدّلائل، ص 31.

[46] الدّلائل، ص 86. ومحمّد هو: محمّد ابن عبد الملك الزّيّات، انظر الطّرائف الأدبيَّة، ص 132.

[47] المدخل ، ص 199.

[48] المدخل، ص 319.

[49] الشّاهد الشّعرية في كتاب أسرار البلاغة، ص 702.

[50] المدخل، ص 73.

[51] الدّلائل، ص 36.

[52] سمَّاها القدماء براعة الاسْتِهْلال، انظر: المزهر للسُّيوطي.

[53] الدّلائل، ص 146.

[54] نفسه، ص 171.

[55] نفسه، ص 199.

[56] الدّلائل، ص 147. انظر شعر عمرو بن يعد يكرب: مطلع الطّرابيشي، مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، ط2، 1985، سوريا .

[57] الدّلائل، ص 279،244،317،....

[58] أسرار البلاغة، ص 189.

[59] الدّلائل، ص 88.

[60] **أحمد مطلوب**، دراسات بلاغيَّة ونقديَّة، دار الرَّشيد، دط، 1978، العراق. ص 13-14.

[61] الدّلائل، ص 151.

[62] نفسه.

[63] نفسه، ص 152.

[64] نفسه، ص 137.

[65] نفسه، ص 127.

[66] ديوان أبي حية النّميري: جمعه وحقّقه: يحي الجبّوري، منشورات وزارة الثّقافة والإرشاد القومي، دط، 1985، سوريا، ص 53

[67] الدّلائل، ص 511.

[68] الدّلائل، ص 489.

[69] الدّلائل، ص 575.

[70] المدخل، ص 234.

[71] الدّلائل، ص 260.

[72] الدّلائل، ص 261.

[73] **محمّد مشبال**: الأثر الجماليّ في النّظريّة البلاغيّة، مجلّة دراسات أدبيّة، ع 6، 1992، المغرب، ص 126-127.

[74] الدّلائل، ص 265.

[75] الدّلائل، ص 262.

[76] الدّلائل، ص 263.

[77] الدّلائل، ص 146.

[78] الدّلائل، ص 33.

[79] **عايد سليم الحربي**، الشّاهد الشّعريّة في أسرار البلاغة-توثيق وتحليل بلاغيّ - ،رسالة ماجستير، الجامعة الإسلاميّة كليّة اللُّغة العربيّة ، ص 864.

[80] الدّلائل، ص 545.

[81] الدّلائل، ص 33.

[82] الدّلائل، ص 628.

[83] الدّلائل، ص 470. الأسرار، ص 6.

[84] الدّلائل، ص 100-101.

[85] نفسه.

[86] الدّلائل، ص 42-98.

[87] مقولات بلاغيّة، ص 49.

[88] الدّلائل، ص 46-47.

[89] نفسه، ص 295.

[90] أسرار البلاغة، ص 130

[91] مراجعات، ص 255.

[92] الدّلائل، ص 528-534.

[93] أسرار البلاغة، ص 8.

[94] مراجعات، 260.

[95] الدّلائل، ص 549-550.

[96] الدّلائل، ص 151.

[97] الدّلائل، ص 80-81.

[98] **الآمدي**: الموازنة، تح: أحمد صقر، دار المعارف، ط 2، 1972، مصر، مج 1، ص 410.

وقد قام الباحث أبو عبد السلام الإدريسي بإحصاء معجما للألفاظ الجماليّة ومصطلحاتها حول حقل التلقّي [رسالة جامعيّة كليّة الآداب بوجدة 2000/99، ص 81-409] كما قام محمّد مشبال ببحث حول الألفاظ الدالّة على التّأثير الشّعري بعنوان الأثر الجمالي في النّظريّة البلاغيّة.